ربيحة أعمارة - جامعة سطيف 2 - الجزائر

سؤال المنهج في النقد الروائي الجزائري الجديد: قضايا ونماذج

ملخص

يعد المنهج في الخطاب النقدي العربي من الأسئلة الشائكة والمعقدة، التي كانت ولا تزال تتصدر اهتمامات الدارسين والنقاد، فالمتتبع للدرس النقدي العربي والجزائري يلمس حجم التراكم الحاصل في الكتابات المنجزة حول قضية المنهج، والتي ما زالت تطرح العديد من الإشكالات المتعلقة بطبيعة الوعي المنهجي في التطبيقات النقدية العربية وكيفية التعامل مع النص، لذا عنيت الدراسة برصد بعض قضايا المنهج عند عبد الملك مرتاض- بعدّه أحد الرواد الأوائل - الذي كان له فضل المساهمة في تأثيث المشهد النقدي الجزائري منذ سنوات السبعينيات إلى يومنا هذا، حيث كَلِف كثيرا بقضية المنهج واضطلع بتطبيقه للمناهج النقدية بكل أنواعها على النصوص الأدبية، مع تمثّل خلفياتها في كتاباته التنظيرية والتطبيقية والتي دعا فيها مؤخرا إلى الإجراء المستوياتي والانفتاح المنهجي أو تركيب مجموعة من المناهج، وعليه فقد ركزنا على رصد سؤال المنهج داخل خطابه النقدي، للكشف عن نظرته وكيفية توظيفه للمنهج، فضلا عن رصد إشكالات وتحديات المنهج في خطابه اللامنهجي.

الكلمات المفتاحية

المنهج، إشكالية، النقد الروائي، التركيب المنهجي، الإجراء المستوياتي.

مقدمة

شهد النقد الروائي الجزائري تحولات عديدة خاصة مع مطلع ثمانينيات القرن العشرين،حيث أسهم العديد من النقاد في تحديث الخطاب النقدي، وذلك بالانفتاح على مستجدات النقد الغربي من مناهج وآليات إجرائية مستحدثة في مقاربة النص من بينها؛ البنيوية والسيميائية والتفكيكية والتأويلية ونظرية القراءة والتلقي وغيرها، فحاولوا تطبيقها على المدونات السردية والشعرية القديمة والجديدة. وانطلاقا من هذه القضية تسعى الدراسة لوصف بعض النماذج القرائية وعرض أسئلة المنهج المتعددة،وكيفية التوظيف والتمثُّل من لدن الناقد الجزائري. قد انطلقت الدراسة من بعض الفرضيات والتساؤلات التي تحاول عرض العديد من القضايا العميقة التي تثير القلق المعرفي، وليست الغاية التوصل إلى حلول وعرضٍ لإجابات فاصلة ومن بينها:

هل وُظف المنهج لخدمة النص أم لخدمة الناقد؟ وهل كان تضييقا للنص أم توسيعا له بفتحه على مناشط التأويل؟ وهل استطاع الناقد الجزائري توظيف المنهج النقدي في مقاربة النص والكشف عن جماليته؟ وهل كان توظيفه متفاعلا أم متماثلا؟ وبأي منهج نواجه النص أو اللانص ؟ وما هي الآليات التي تم ابتكارها من لدن الناقد الجزائري في مواجهة النص الروائي؟ وهل إبداع المنهج يتم من خلال الالتزام بطرائقه أم أن الإبداع المنهجي يستمد قيمته من النص الذي يدعمه بعطائيته وممكناته ؟هل التركيب المنهجي يعد أداة علمية يمكن اعتمادها لطرق عوالم النص المظلمة واللامتناهية بإجراءات عديدة؟ أم أنه يعدّ مغالطة ولا يَعْدُو أن يكون تلفيقا ولا يمكن قبوله؟ وهل لدينا منهجية ومنهج واضح في إتباع المنهج النقدي؟

أولا: مساءلة مفاهيمية في طبيعة المنهج النقدي

إن الحديث عن المنهج وقضاياه، فضلا عن تطبيقاته على الرواية الجزائرية لا يخلو من صعوبة نظرا لارتباطه بالنظرية الأدبية وخلاصة مفاهيمها وأفكارها، ثم علاقته بالنص الإبداعي، وأخيرا بعدّته الإجرائية وجهازه الاصطلاحي، وعليه فإن المنهج النقدي في حقل الأدب يعني مجموعة من الطرق والوسائل والإجراءات التي يتخذها الناقد المحلِّل في دراسة وتحليل النص الأدبي والكشف عن جمالياته.

وقد عرّفه صلاح فضل بأنّه :" يتعلّق بالدراسة الأدبية، وبطرق معالجة القضايا الأدبية والنظر في مظاهرالإبداع الأدبي بأشكاله وتحليلها"(01). كما يُعدُّ أيضا "جملة من الأساليب والآليات الإجرائية الصادرة عن رؤية نظرية شاملة إلى الإبداع الأدبي، والتي غالبا ما تنبثق عن أساس فلسفي أو فكري، يستخدمها الناقد في تحليل النّص وتفسيره، بكيفية شاملة "(02) فلكل نظرية أدبية منهجٌ نقدي يتماشى مع منطلقاتها، ويطبّق تنظيراتها ويحاول الإحاطة بمعطياتها للإلمام بالنص وذلك وفق الإجراءات التي تضعها.

ثانيا: قراءة في تجربة عبد الملك مرتاض

1. الوعي المنهجي في خطاب عبد الملك مرتاض

يُعدّ مرتاض من بين النّقاد العرب الأوائل، الذين عنوا بنقل وتمثُّل المناهج النقدية الغربية مع محاولة التأسيس لمنهج نقدي عربي يجمع بين خصوصية النّص الأدبي العربي، والآليات المنهجية الحداثية الغربية، وذلك من خلال تطويع هذه الأخيرة بما يتواءم والطبيعة التي تفرضها النّصوص العربية،فالمتأمل لمسيرة الخطاب النقدي المرتاضي يلحظ حتما تطّورا كبيرا على المستوى المنهجي ويرصد تقلُّبات كثيرة فيه نابعة من إيمانه العميق بالتّطور والتّجدد المعرفي من جهة، ونابعة كذلك من رؤيته للنّص الأدبي، الذي يعدّه عالما ضخما متعدِّد المستويات، لا يمكن الولوج إليه من باب واحدةمن جهة أخرى، ولذا عدّه يوسف وغليسي"من أكثر النقاد العرب تطورا على مستوى المنهج وأعمقهم انشغالا بالثورة المنهجية، وأقدرهم وعيا بمكانة المنهج في الخطاب النقدي"(03). وانطلاقا من هذه الرؤية ونظرا للأهمية التي يكتسيها المنهج - وسلطته في الساحة النقدية الغربية والعربية - أولى له الناقد عناية كبيرة، نابعة من حرصه الشديد على إيجاد بديل منهجي يستوعب النّص الأدبي في شموليته، ويضيء عوالمه الداخلية ويكشف عن السر الكامن وراء جماليته، ولذلك نجده كثير التساؤل عن المنهج أو الإجراء الذي يخترق عالم النّص الأدبي ويكشف عن نظارته وسحريته، وأدبيته التي تميزه عن غيره من النصوص الفنية الأخرى التي يشترك معها في الوظيفة، ويختلف عنها في الأداة .

2. آليات التحديث والاشتغال على المنهج

لجأ الناقد إلى تفعيل وتحديث المناهج وتطعيمها برؤية حداثية،بعدما أثبتت المناهج السياقية عجزها في استغوار مكامن النّص أو اللاّنص- لابتعاد التطبيق عن فحوى النص والاهتمام بالسياق- إنْ صح مثل هذا التعبير ولذلك تنكّر للمناهج التي تُقحم البيئة والزمان والمؤثرات وأعلن انفتاحه مباشرة على المناهج الحداثية التي قصاراها الإحاطة بالنّص، ومنه فَقَدْ اتصفت دراساته الأخيرة باهتماماتها الكثيفة بالبنية النّصية بحيث يقول:" وإنما هو نص نقرؤه؛ فهو الذي يعنينا، وهو الذي يجب أن ندرسه ونحلّله بالوسائل العلمية أو الأقرب ما تكون إلى العلم "(04)، وألفيناه يقدح في المناهج التقليدية العقيمة التي قصاراها الجمع والتّكديس؛ لأنالمدار المنهجي في هذا العصر يقوم على الدراسة العمودية المنهج القائمة على الملاحظة الدّقيقة، لاعلى الشرح التعليمي الأفقي المنهج، وعلى اختراق أسرار النَص الأدبي والتّحكم في خفاياه النّادة، ومكامنه المعتاصة، لتغتدي بادية للقارئ، مُكتشفة للمتلقي(05).

فعبد الملك مرتاض جاوز طور الرؤية التقليدية التي تهتمبالشرح دون التّحليل، وقد دعا إلى المناهج الحديثة بعدما تحقّق بأنّ الجهود العربية القديمة لم ترق إلى مصاف الدراسات التحليلية الحديثة ومن ثم نادىبتطبيق الممارسات القرائية المنهجية الغربية الحديثة، وأقرّ بتطبيقها على النصوص التراثية حين قائل لقد: "آن لنا أن ننسلخ من هذه التقليديات التي تهيمن على تفكيرنا باسم التّعلُّق بالتراث، وما هي بالتراث في شيء. فالتعلق بهذا التراث شيء ودراسته وتقويمه وفهمه بمنهج علمي حديث شيء آخر. أما أن نحلل التراث بمنهج تراثي، فذلك حتما ضلال بعيد!" (06). ذلك أنّ التحليلات التراثية تنصّب على شرح النصوص والتعليق عليها، والعرض لجوانبها اللغوية والبلاغية، دون الكشف عن خفاياها: "ولا سواء من يشرح نصّا أدبيا ويعرض لجوانبه اللغوية والبلاغية والتاريخية... ومن يحلّل نصّا أدبيا ابتغاء استكناه قضاياه الفنية واللغوية والجمالية في اتساعها وتشعّبها واعتياصها على التناول أيضا جميعا"(07).

وقد أبدى إعجابه بما توصّلت إليه الدراسات الغربية الحداثية التي قطعت أشواطا في مجال تحليل النص الأدبي، و دَعتْإلى استحداث إجراءات جديدة تتجاوز

الإجراءات التقليدية التي تقضي بفصل الشعر عن النثر... وفي مقابل هذه الحركية الغربية فإنّه يرى بقلة الدراسات العربية التحليلية الحديثة(08).

ولقد وجدنا في أغلب كتاباته النقدية التي تجشم فيها العناية بتحليل ومدارسة النَّصوص الأدبية- سواء كانت شعرية أم سردية أم شعبية - وحتى القرآنية. كثيرًا من المساءلات الجادة النابعة منتجربته الطويلة المثمرة المتنوعة المناهجوخاصة المناهج الحداثية التي تعامل معها ومازال، بحيث يتساءل عن الطريقة والأداة الأمثل لولوج عالم النص، فيقول بأي أداة ؟ وبأي منهج ؟ هذه الثنائية المنهجية التي استحوذت على أغلب كتابات الرجل فنجده يقول" هذا النص... كيف نقرؤه ؟ وبأي الأدوات نتناوله ؟ وبأي الإجراءات نعالجه، وبأي النَّظريَات ننظرتجلياته : كيما نحافظ على عذريَّته وسِحْريَته ؟ ... كل السؤال هنا. ذلك هو الشأن الذي حارتفيه الأساتيذُ وقَصُرتْ عنه الجهابيذ"(09). وعلى الرغم من تعدّد المناهج، إلاّ أنّ ذلك لا يكفي للإحاطة بعوالم النّص وربما لهذا نجده يبحث عن كيفية الولوج للنّص وتحليله و الظاهرة المرتجاة من هذا التحليل بقوله: "من أين نبدأ النّص ونحن نزمع على تحليله ؟ ثمّ ما الظاهرة الفنية أو الجمالية أو النسجية التي يجب أن نلتمسها فيه ابتغاء تحليلها ؟"(10).

فالنّص عالم ضخم ومتشعب ويحوي العديد من المستويات، فضلا على أنه يمارس لعبة الخفاء والتجلي؛ فاللفظ حاضر والمعنى مؤجل أو انزياحي أو غائب (حسب الرؤية الجديدة)؛ لأن "النص الأدبي لا يبوح لأحد بأسراره كلها دفعة واحدة، وذلك سرّ من أسرار بقائه حيا نضرا، بينما تتحول الدراسات التي تتناوله مع مرور الزمن إلى أطلال كلام يعلوه الصدأ والغبار"(11)، وهو من هذه الوجهة واحد على المستوى اللغوي- كيان ثابت- ومتعدِّد على المستوى القرائي، بحسب وصف مرتاض (الواحد المتعدد)؛ أي أنه منفتح على التأويل والقراءات، وقابليته للعطائية؛ لأنه يمدّنا كلما استمددناه، إلا أن هذه العطائية أو ما تطلق عليه (جوليا كريستيفا) النتاجية مرهونة بقدرات القارئ أو المحلل على التناول.

3. التركيب المنهجي أو إستراتجية اللامنهج في تحليل النص

أ. مفهوم التركيب المنهجي

لا يمكن الحديث عن المنهج النقدي دون الولوج إلى التركيب المنهجي عند عبد الملك مرتاض؛ لأنَّه السمة البارزة في منهجه، بل هو أساس المنهج عنده، أو اللامنهج إن صح مثل هذا الإطلاق حيثيقول: "إنّ اللامنهج في تشريح النّص هو المنهج"(12)، وربما يعود هذا الأمر إلى"إيمان متجذّر باستحالة تأسيس منهج ثابت لجنس أدبي متحوِّل"(13)، فإذا كان النّص الأدبي بنية متحولة ومتعددة المستويات فكيفننشد لها منهجا واحداونتعصب للتعددية المنهجية، بحيث تصبح المعيارية في هذه الممارسة تعني أحادية القراءة. وعليه فإنّه "لا يوجد منهج كامل، مثاليّ، لا يأتيه الضعف ولا النقص من بين يديه ولا من خلفه. وإذاً فمن التعصب التمسّكُ بتقنيات منهج واحد على أساس أنه، هو وحده، ولا منهج آخر معهجدير أن يُتَّبَع"(14). فكل منهج يكتفي بإضاءة زاوية واحدة من النّص ومنه فقد" دأب بعض الدارسين على إطلاق صفة" اللامنهج" على ما يسمى "بالمنهج التكاملي" الداعي إلى تلفيق المناهج وترقيعها بعضها ببعض، محاولةً للتوفيق بينها، ورغبة في الخروج منها بصورة منهجية شاملة وكاملة!" (15) و يتحدد "اللامنهج" بمعارضته للمنهج الجامد والتطبيق الميكانيكي للآليات المنهجية الثابتة التي لا بد أن تكون غريبة نسبيا عن خصوصية النص المدروس"(16)، بمعنى تفعيل المنهج والمساهمة في تنشيط أدواته من خلال الانفتاح المنهجي الذي يوائم النص ويتطابق ومعطياته.

ب. التركيب المنهجي بين الرفض والقبول

تعد قضية التركيب المنهجي في النقد العربي القضية الأبرز في الممارسات النقدية فنادرا ما نجد الناقد الجزائري ملتزم بالمنهج ومتبع لإجراءاته دون الاستعانة بإجراءات المناهج الأخرى، نظرا لانفتاح النصوجعل الناقد (عز الدين المناصرة) يقول بتعذّر إيجاد منهج ثابت بحيث" لا يمكن أن نتحدّث عن منهج ثابت لدراسة الأدب بل عن فاعلية دائمة التّجدد والتغير"(17)، تواكب الفاعلية الأدبية المتجددة أيضا التي تسهم في تشكليها مجموعة من العناصر. ولهذاازداد مرتاض إصرارا على ضرورة التركيب بين مختلف المناهج دونما تحّرج؛ لأنّ هذا السعي المنهجي المركب مارسه

نقاد لهم وزنهم في النقد الغربي كـ "فلاديمير بروب لوسيان غولدمان،.." الذي جمع بين البنيوية والمنهج الاجتماعي مثلا) بل يقول ذلك بصريح العبارة: "وقد دأبنا في تعاملنا مع النُّصوص الأدبية التي تناولناها بالقراءة التَّحليلية على السعي إلى المزاوجة، أو المثالثة أو المرابعة، وربما المخامسة بين طائفة من المستويات باصطناع القراءة المركَّبة التي لاتجتزئ بإجراء أحادي في تحليل النصّ؛ لأن مثل ذلك الإجراء مهما كان كاملاً دقيقاً؛فلن يبغي من النّص المحلّل كلّ ما فيه من مركّبات لسانية، وإيديولوجية، وجمالية، ونفسية،جميعا"(18). ولعلأيضا ما حمله على هذا الدّمج والتهجين أو التضافر المنهجي هو قصور المنهج الواحد، وعجزه عن إضاءة كل جوانب النص الأدبي، كونه يكتفي بإضاءة زاوية واحدة فقط، من هذا الكل المركب من عدة أجزاء ومنه يصبح: "تهجين أيّ منهج أمرٌ ضروريّ لتنشيط أدواته، وتفعيل إجراءاته؛ كيما يغتديَ أقدرَ على العطاء والتخصيب"(19).

إنّ هذه الرؤية التي انتهى إليها مرتاض لم تأتِمن فراغ بل كانت نتيجة عصارة سنون عديدة ونتيجةً لتعامله مع النّص بشتى أنواعه بالتحليل والتشريح،حيث توصل إلى أن خصوصية النص الأدبي العربي مرنة - جهوزيتها للتحليل المركب- وتقبل المزيد من القراءات وأن كل نص يفرض منهجه لا بل النص الواحد يمكن طرقه بأي منهج "إلا أننا لا نقرأ النص الأدبي الراهن بالأدوات التي كنا قد قرأنا بها نصا ماضيا"(20) وهذا ما يثبت فكرة مؤداها نسبية القراءة من جهة، وديناميةالنص وانفتاحه على التعددية القرائية: "بل إنَّ قراءته تظل نسبية، ومفتوحة، بل أولية، مجرد ذلك إلى نهاية الزمن"(21).

يمكن اعتبار تعددّية القراءة عند الناقد سمة دالة على تمرُّسه وقدرته العالية على ترويض النص وتحليله، وتنشيط عطائيته من جهة أخرى، فالنص "فضاء، وسيرورة دلالات تشتغل، وبكلمة واحدة: الدّلالية [التمدلل: signifiance]...لا يحاول التحليل النّصي معرفة بماذا يتحدد النص، بل بالأحرى كيف يتفجّر ويتبدّد"(22)؛ لأن عطائية النّص تتناسب تناسبا طرديا مع مرونة المنهج النقدي المطبَّق عليه، ومدى انفتاحه ودرجة تطويعه لاستيعاب ما يُتيحه النّص من خصوبة وجمالية، وعليه فإن

مرتاض "يُضحي بشيء من سلطة المنهج، من أجل منح النص الأدبي حياة جديدة مُنتِجة"(23).

وإن كان هناك من يقبل التركيب المنهجي فإن بالمقابل هناك من يرفضه ويعده مجرد تلفيق منهجي لا يركن إلى أساس، وربما لهذاوُسم عمل مرتاض بأنّه لا منهجي وأنّه " يجاور ما لا يتجاور من المناهج، ويساكن ما لا يتساكن من الاتجاهات، فلم يستقر بذلك على منهج محدّد، ولم يركن إلى نظرية بعينها"(24). يمكن القول إنّ مرتاضا في اختياره لمبدإ التعدّديّة أو التركيب المنهجي، لا يعني أنه لا يستطيع تناول النّص وِفق منهج واحد، وإنما أراد أن يتجاوز هذه النظرة المعيارية التي تقنن للإبداع، والتي أصبح فيها المنهج قَالبا ولباسا يصلح لكل النّصوص بدون استثناء- وهذه مغالطة- اعتقادا منه بأنّ كل نص يمثل ظاهرة متفرِّدة حتى وإن كان لمبدع واحد، وعليه فقداتخذ سبيل التعددية بوعي منهجي عميق.فيكفي أنّه استوعب كل المناهج،ثم حين تم إثباتعجز المنهج الواحد عن استيعاب النص والوصول إلى جوهره حاول الخروج بمنهج مهجن يأخذ بايجابيات المناهج ويبتعد عن المنهجية السلبية من أجل "استثمار الآليات المنهجية الدخيلة بذوق محلي أصيل قد يسيءإلى بعض مقومات المنهج الغربي، ولكنه ما ينبغي له أن يمس خصوصية النص العربي بسوء، وبذلك كان مرتاض ناقد غربي المنهج عربي الطريقة، حداثي المادة تراثي الروح..." (25).

وربما أمكن إرجاع ظاهرة التعددية هذه أو هذا الاختلاف، إلى الاختلاف النابع من طبيعة النص الأدبي نفسه والمفهوم الذي يمنحه المنهج له؛ لأن "تغاير المناهج واختلاف التوجهّات النقدية في النُّصوص الأدبية ليسا في جوهرهما إلا اختلافا في تحديد ماهية "النص" وخصائصه ووظائفه"(26)، كون النص العنصر البؤري الذي تَنصبُّ عليه كل الجهود، فالإشكال لا يكمن في المنهج في حد ذاته بل في درجة الوعي بمنطلقاته وحسن توظيف أدواته واستخراج مكامن النص، والبلوغ لأقصى شعريته" إن الإشكال لا يولده المنهج، إنما يتولد من التقمص الخاطئ، فالإشكال مرجأ إلى حين تبدأ عملية تبني المنهج "(27).

ثالثا: آليات الاشتغال على المنهج في مقاربة النص الأدبي

سعى مرتاض في كل مرة إلى تفجير النّص بأدوات وإجراءات تتطور بحسب تطوّر فكره النقدي وقراءاته والتي تكون دائما مستقاة من النّص نفسه؛ لأنه يرفض الإذعان لسيادةٍ منهجية غربيّةعلى النصوص الأدبية العربية، كما يرفض الفكرة القائلة بعلمنة النّص الأدبي الفني الجميل؛ لأن عملية العلمنة "تشويه لخِلْقته، وتبشيعٌ لصورته، وتقبيح لبهائه؛ بل تدمير لكيانه... محاولةُ العلمنةِ زعمٌ شكلانيٌّ جاء من أقصى بلاد الرّوس يسعى ولم يُفضِ إلا إلى نقيض القصد... فبأي آداةٍ يمكن علمنة ما لا يجُدي فيه البرهان ؟ "(28). لذا فمن التّنكر إدعاء الموضوعية والصرامة المنهجية وخصوصا أثناء التعامل مع الظاهرة الفنية،التي تسْتَميز بالنسبية، وربما لهذا السبب فشلت الدراسات التي اتخذت المسلك العلمي في تحليل النصوص الأدبية، فالجهود التي سعت إلى وضع قوانين وتطبيقها بصرامة على الفن بوجه العموم باءت بالفشل لأنّ الأدب يرفض العلمنة.

وقد اقترح عبد الملك مرتاض عدة آليات خصبة لمواجهة النّص الأدبي- بعيدا عن العلمنة- ، ويأتي على رأسها الإجراء المستوياتي الذي اصطنعه من أجل الإحاطة بكل جوانب النّص الأدبي؛ فهو مزيج من العديد من المناهج، وسعي منهجي من تأسيسه ينهض على قراءة النّص بإجراءات مركّبة تتضافر لتلقي الضياء على النّص الأدبي المقروء من معظم زواياه الممكنة(29). وقد اعتمده في تحليلاته المختلفة من خلال دعواته المتعددة في كتاباته حيث يقول "وربما أمكن تناول النّص مستوياتيا وذلك ما نأتيه نحن في تجربة عشقنا للكتابة"(30)؛ لأنّ النص عنده نسيج سحري متكامل التركيب، محبوك النسيج، ينشدُ له إجراءً شموليا مركبّا من البنوية واللسانيات والسيميائيات مع إضافة ابتكاراته على المستوى التطبيقي، كما أنّ هذه المستويات تزيد وتنقص حسب قدرات القارئ وبراعته القرائية... فقد يحدث أن يكون النص باهتا فنيا وتأتي عملية القراءة لتكشف عّما لم يقله النّص، وقد يستغرق تحليل نصٍّ صغير كتابة مجلدات دون أن يوفيّه حقّه. فهذا الإجراء المستوياتي يمكن أن يستخرج فحوى النص الأدبي و لبه.

كما دعا إلى القراءة الشمولية للنص؛ لأن النص نسيج مركب؛ ولأنه آمن بأنه "لا وجود لمنهج كامل، وكل منهج سيظل عرضة للنقص، ولأجل التقليل من هذا النقص الذي يعتري المنهج الواحد، لجأ إلى البحث عن" منهج مركبّ"(31)، فهو قد ابتعد عن القراءات السطحية والسياقية؛ لأن القراءة السياقية للنص قراءة "استنزافية" تمتص كل مكوناته وتؤهلها وتؤولها بحسب توجيهات السياق فلا تُبقي خلفها إلا هياكل نخرة جوفاء، تتخطاها إلى غيرها، وقد تكون في بعض الأحايين قراءة "انتقائية" تنزلق على السطح، تتخير من النص ما يخدم غرضها، فتقف عنده، ثم تتجاوزه على نقاط نراها تتجاوب وأدواتها، شن القراءة النفسية"(32)، وعموما فقد حاول الناقد إرساء منهج نقدي عربي بإجراءات مبتكرة، أو موسّعة من لدنه الغرض إثراء النّص الأدبي والإحاطة بكل جوانبه.

رابعا: زعزعة الوثوقية في التطبيق

عدّ بعض النقاد أنالمنهج ما هو إلا أدوات هندسية ذات أبعاد وحجوم، ولا يمكن المساس بهاعند التطبيق، ووجب الوفاء والالتزام الحرفي بها، فأخذت المناهج تسّير نتاجهم دون أن يكون للمنجزالإبداعي حرية اختيار المنهج الذي يتطابق مع ممكناته ونتاجيته، متناسين أن النظرية الأدبية أيضا لا ترفض الانفتاح ذلك أن "النظرية الأدبية الواحدة تسفر عن طرائق متعددة ومناهج متعددة في التطبيق، وهذه المناهج لها مصطلحاتها، ويمكن أن تتبادل الاصطلاح، هذا التبادل يضمن لها قدرا من الحيوية والمرونة في المصطلح النقدي، ولكن هذا التبادل محكوم بالاتساق المعرفي بين العناصر التي يتم تبادلها"(33).

وتنبغي الإشارة أيضا إلى أن"التطبيقات المكررة لأدوات إجرائية تدفع إلى التساؤل عن ديمومتها ومآلها وعن مدى قدراتها على الإلمام بإنتاجنا المعرفي وخصوصياته"(34)، فمن الصعب وضع أنموذج قار يمكنه استيعاب كل طاقات النص، بل يجب الأخذ في الحسبان بإمكانية ابتكار فاعليات قرائية مستنبطة من داخل النص مع مراعاة خصوصية الخطاب الأدبي؛ لأنه "خطاب فلوت، بمعنى أنه ليس مجرد أبنية وقوالب لغوية بل هو وقائع كلامية وأسلوبية ودلالات تعبيرية، ولغة الخطاب الأدبي بهذا ليست إطار لإبراز المعاني فقط، بل تتجاوز ذلك إلى آفاق أرحب

وفضاءات أبعد، ولذلك نرى أنه من التعسف قهر الخطاب الأدبي وتعطيل طاقته الإنتاجية، بتوظيف مفاهيم غريبة عنه في تحليله، ومن التعسف اختصار كثافته الدلالية في بعد واحد محدود وهزيل"(35)؛ لأن النظرة الأحادية المقننة للإبداع لا يمكن أن تؤدي إلى شيء،فلا وجود لقواعد ثابتة وإنما هو نص أدبي قوامه الإبداع والتخييل وشفرته اللغة، فيصبح من السذاجة التحامل عليه وفقمنهجية ثابتة علمية وصارمة.فضلا على" أن الخطأ الذي ارتكبه نقاد الأدب إنهم أدركوا المنهجية إدراك جمود وثبات، أي أنها ليست سوى أسس ومقاييس جامدة، في حين أنها تعتمد بالدرجة الأولى على الذوق والحساسية المرهفة القادرة على التموضع في الأثر الأدبي ومعرفة جوهره الفني"(36)، فعملية الإسقاط المفروض على النص وسلطة المنهج وتمنُّع النص أوضحت حقيقة الممارسة النقدية التي مسخت النص وحوّلته إلى رموز غامضة بحيث "اصطدم هذا المعطى مع حقيقة النص الإبداعية التي يخرجها بعضهم من حقيقتها التخييلية إلى واقع علمي صارم"(37). وفي هذا الصدد أيضا يضيف الناقد الجزائري حبيب مونسي بأن جوهر المنهج حسب رؤيته مرتبط بقدرات القارئ الاستنباطية المبدعة؛لأنه هو الذي يغني النص ويثريه" من البديهي اليوم التسليم أم كل "قراءة" تستند إلى أصول معرفية تؤسسها نظرية فلسفية، تستقطب جميع التصورات للكون الفكري عند القارئ، وتحدد أدواتها الإجرائية عند مواجهة النص، من خلال فعل يتجاوز الشرح والتفسير، والتأثير، إلى الاستنطاق الخفي لمكنون النص والزيادة عليه قصد كشف ما لا يقوله. وتقف الخلفية المعرفية كحيثية حية تمد القارئ بفيض" التوجيهات" العملية في رحلته داخل عوالم النص المتشعبة"(38). فكما أن لكل مبدع نص، فإن لكل قارئ أيضا نصه الذي أبدعه اعتمادا على مناشط التأويل.

خاتمة

- يمكن القول عنعبد الملك مرتاض، بأنّه ينظر إلى ماجدّ في مسرح النقد نظرة المتمرِّس،بحيث دعا إلى تجديد مناهج النّقد العربي القديم وأسهم في بلورة اتجاه نقدي عربي هدفه قراءة الأدب العربي قديمه وحديثه قراءة خلّاقة يحاور فيها النّاقدُ القارئَ النصوص متعاطفا ومندهشا ومشاركا في إنتاج دلالتها متجاوزا الأحكام

القيمية التي عصفت بالنّقد العربي(39)، والغاية من وراء لهج مرتاض وراء ابتكار منهج أو بالأحرى طرائق منهجية مرّكبة،هي ميله الشديد إلى ابتكار مناهج عربية تتلاءم وخصوصية النص العربي، وتأخذ من الحداثة الغربية بمقدار لتطوير نفسها وعليه فيظل المنهج المبتكر "عربي الذوق، عربي الصقل، عربي الإشراقة"(40).

- إنّ تطبيق الآليات الإجرائية للمناهج على النصوص الإبداعية، تبقى عملية معرفية معقّدة تختلف في تقنياتها من باحث لآخر حسب قدراته القرائية وثقافته النقدية.

- عند إبراز قضايا المنهج وعلاقتها بالنص الروائي، تجلت العديد من الإشكالات المتعلقة أساسا بمستوى التطبيق والاستيعاب والتوظيف، فهناك غموض في الآليات المستخدمة من لدن النقاد وميل إلى تشفير النص وغلقه.

- لا شك أن النص الروائي حمال أوجه وغني بالممكنات كونه يحمل عددا ضخما من الصفات التي تجعله يمثل حقلا دلاليا، لذا أمكن مدارسته وتحليله وفقآليات نصية منهجية تحيط بكل مكوناته.

- كثيرةٌ هي الممارسات النقدية التي تناولت الرواية الجزائرية وفق مناهج متباينة، لكنّ معظم تلك المحاولات نحت نحو الشكليات، مع تغييب تقويم للرواية وطرح أسئلتها ورهانتها وآفاقها؛ أي ماذا بعد التحليل إلى أين سنصل؟ وقليلة هي الدراسات التي عرضت لفلسفة السرد وسرد الفلسفة وإقامة حوار مع النص والكشف عن قضاياه.

الهوامش

01. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريت للنشر والمعلومات،القاهرة،ط1، 2002، ص 11.
02. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، 2002، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، دط، 2002، ص 24.
03. المرجع نفسه، ص 131.
04. عبد الملك مرتاض، الألغاز الشعبية الجزائرية ،تحليل لمجموعة من الألغاز الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2007، ص 04.
05. ينظر:عبد الملك مرتاض، نظرية النّص الأدبي، دار هومة،الجزائر، ط2، 2010، ص 15.
06. المصدر نفسه، ص 05.
07. المصدر نفسه، ص 14.
08. ينظر:المصدر نفسه، ص14.
09. المصدر نفسه، ص08.
10. المصدر نفسه، ص 108.
11. عمار بن زايد، النص والمنهج، مجلة معارف، البويرة، ع1، 2006، ص 24.
12. عبد الملك مرتاض، النّص الأدبي من أين ؟و إلى أين ؟ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983، ص55.
13. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص 31.
14. عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعريّ،تحليل بالإجراء المستوياتيّ لقصيدة شناشيل ابنة الجلبيّ،اتحاد الكتاب العرب،دمشق، دط، 2005، ص 13.
15. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص86.
16. المرجع نفسه، ص88.
17. عز الدين المناصرة، تذوق الأدب، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، دط، 2006، ص 57.
18. عبد الملك مرتاض، التحليل السيمائي للخطاب الشعريّ، ص 8.
19. المصدرنفسه، ص14.
20. عبد الملك مرتاض، شعرية القصيدة قصيدة القراءة، تحليل مرّكب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص 85.
21. عبد الملك مرتاض، نظرية النص الأدبي، ص 03.

22. رولان بارت، التحليل النّصي،تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة، ترجمة وتقديم، عبد الكبير شرقاوي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، دط، 2009، ص 76.

23. يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009، ص306.

24. سليمة لوكام، تلقي السرديات في النقد المغاربي، دار سحر للنشر، تونس، دط، 2009، ص 193.

25. يوسف وغليسي،الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص 08.

26. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن ، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، لبنان / المغرب، ط6، 2005، ص 19.

27. هيام عبد رويد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2012، ص 572.

28. عبد الملك مرتاض، نظرية النّص الأدبي، ص 07.

29. ينظر:عبد الملك مرتاض، الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع،الجزائر، دط 2005، ص 16.

30. عبد الملك مرتاض، نظرية النّص الأدبي، ص 08.

31. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص124.

32. حبيب مونسي، نقد النقد والمنجز العربي في النقد الأدبي دراسة في المناهج، منشورات دار الأديب، الجزائر، دط، 2007، ص 127.

33. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ص 14.

34. السعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي دراسة سيميائية "غدا يوم جديد" لابن هدوقة عينة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000، ص9.

35. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث تحليل الخطاب الشعري والسرد، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2010، ص57.

36. هيام عبد رويد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، ص575.

37. المرجع نفسه، ص574.

38. حبيب مونسي، نقد النقد والمنجز العربي في النقد الأدبي دراسة في المناهج، ص95.

39. ينظر: علي خذري، تحديث النقد الجزائري، أعمال الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري، 21- 22 ماي 2006، مجلة حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات بجامعة مسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر، 2013، ص 111.

40. عبد الملك مرتاض، التحليل السيميائي للخطاب الشعري، ص 17.

المصادر والمراجع

01. عبد الملك مرتاض: الأدب الجزائري القديم، دراسة في الجذور، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2005.

02. عبد الملك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية، تحليل لمجموعة من الألغاز الجزائرية، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 2007.

03. عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعريّ، تحليل بالإجراء المستوياتيّ لقصيدة شناشيل ابنة الجلبيّ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2005.

04. عبد الملك مرتاض: النّص الأدبي من أين ؟ و إلى أين ؟ ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1983.

05. عبد الملك مرتاض: شعرية القصيدة قصيدة القراءة، تحليل مرّكب لقصيدة أشجان يمانية، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

06. عبد الملك مرتاض: نظرية النّص الأدبي، دار هومة، الجزائر، ط2، 2010.

07. حبيب مونسي، نقد النقد والمنجز العربي في النقد الأدبي دراسة في المناهج، منشورات دار الأديب، الجزائر، دط، 2007.

08. رولان بارت، التحليل النّصي، تطبيقات على نصوص من التوراة والإنجيل والقصة القصيرة، ترجمة وتقديم، عبد الكبير شرقاوي، دار التكوين للتأليف والترجمة والنشر، دمشق، سوريا، دط، 2009.

09. السعيد بوطاجين، الاشتغال العاملي دراسة سيميائية "غدا يوم جديد"لابن هدوقة عينة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2000.

10. سليمة لوكام، تلقي السرديات في النقد المغاربي، دار سحر للنشر، تونس، دط، 2009.

11. صلاح فضل، مناهج النقد المعاصر، ميريتللنشروالمعلومات، القاهرة، ط1، 2002.

12. عز الدين المناصرة، تذوق الأدب، دار البركة للنشر والتوزيع، عمان، دط، 2006.

13. علي خذري، تحديث النقد الجزائري، أعمال الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري 21- 22 ماي 2006، مجلة حوليات الآداب واللغات، كلية الآداب واللغات بجامعة مسيلة، الجزائر، ع2، ديسمبر، 2013.

14. عمار بن زايد، النص والمنهج، مجلة معارف، البويرة، ع1، 2006.

15. محمد عزام، تحليل الخطاب الأدبي على ضوء المناهج النقدية الحداثية، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، دط، 2003.

16. نصر حامد أبو زيد، مفهوم النصّ، دراسة في علوم القرآن، دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، لبنان / المغرب، ط6، 2005.

17. نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب دراسة في النقد العربي الحديث تحليل الخطاب الشعري والسرد، ج1، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2010.

18. هيام عبد ريد عطية عريعر، الخطاب النقدي العربي المعاصر وعلاقته بمناهج النقد الغربي، تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2012.

19. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، 2002، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، دار البشائر للنشر والاتصال، الجزائر، دط، 2002.

20. يوسف وغليسي، في ظلال النصوص، تأملات نقدية في كتابات جزائرية، جسور للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2009.